# الإصلاح

لم يكن انتقالي إلى الحي العصري حدثًا عاديًا في حياتي، بل كان نقطة تحوّل رسمت على ملامحي مزيجًا من الحماس والحنين. غادرتُ الحي العتيق الذي احتضن طفولتي، بكل أزقته الضيقة وبيوته المتلاصقة التي كانت تحكي قصصًا من زمن مضى، وانتقلتُ إلى حي حديث تزينه العمارات الشاهقة والشوارع الواسعة، حيث الحدائق الممتدة والمباني الملساء التي تعكس أشعة الشمس كالمرايا.

في البداية، شعرتُ باندهاشٍ كبير أمام النظافة الباهرة والتنظيم الدقيق، فكل شيء في مكانه، لا فوضى ولا أصوات بائعين جوالين ينادون بأصواتهم المألوفة، ولا جدران تحمل آثار الزمن والحكايات القديمة. لكن رغم ذلك، أحسست بشيء ينقصني، شيء لا تراه العين لكنه يُحسّ في القلب.

مرت الأيام، وبدأت أشتاق إلى تلك الجدران المتشققة التي كنت أعتبرها جزءًا من حياتي، إلى الأزقة الضيقة التي كنا نركض فيها بحرية، إلى وجوه الجيران الذين كانوا كالعائلة، يطرقون أبواب بعضهم بلا تكلّف، ويشاركون الأفراح والأحزان دون حسابات. اشتقتُ إلى نداء بائع الخضر صباحًا، وضحكات الأطفال التي تتعالى بين البيوت، حتى إلى رائحة الخبز التي تنبعث من المخبز المتاخم لمنزلنا .

وذات يوم، مررتُ صدفةً بحيّي القديم. كنت أتوق لرؤيته بعين مختلفة، فوجدته كما تركته، لكنه بدا لي أكثر دفئًا مما كنت أظن. كل ركن فيه كان يحمل ذكرى، كل جدار كان يخبرني قصة من طفولتي. اقتربتُ من دكان الحاج علي، حيث كنت أشتري الحلوى بقطع نقدية معدودة، فوجدته كما كان، لكنني لم أكن أنا الصغير الذي كان يقف هناك بعينين لامعتين.

أدركت حينها أن الحي العتيق، رغم بساطته، كان نابضًا بالحياة، بروحٍ لا تجدها في المباني الفاخرة والممرات الواسعة للحي العصري. في الحي القديم، كانت القلوب قريبة، أما في الحي الجديد، فالبيوت متباعدة، والقلوب أيضا متباعدة. فكل شخص منشغل بحياته. صحيح أنّه أكثر هدوءًا ونظامًا، لكنّ الدفء الإنساني الذي كنت أعيشه لم يعد كما كان.

رغم كل شيء، لا أنكر أن للحي العصري مزاياه، فهناك مساحات خضراء للعب، ومدارس حديثة، وشوارع نظيفة، لكنّ قلبي سيظل متعلقًا بذلك الركن الصغير من المدينة، أين ترعرعت، وأين عرفت معنى البساطة والدفء الحقيقي. فالبيوت ليست بجدرانها، بل بأهلها وذكرياتها، وبعض الأماكن تظل محفورة فينا مهما ابتعدنا.

مكتبتي
www.mektabeti.com